مركز الدراسات
السياسية
والاستراتيجية
بالأهرام

الشعب الواحد والوطن الواحد

دراسة فى أصول الوحدة الوطنية

تقديم : دكتور بطرس بطرس غالى

تأليف : دكتور وليم سليمان
طارق البشرى
دكتور مصطفى الفقى

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام

- مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية مركز علمى مستقل يعمل فى اطار مؤسسة الاهرام ومن أهدافه دراسة العلاقات الدولية بهدف تقديم بحوث علمية للتطورات وللصراعات ذات التأثير على الشرق الأوسط عامة وعلى الصراع العربى والاسرائيلى بصفة خاصة . ويدخل فى هذا الاطار :

  — التغيرات الرئيسية التى يمر بها النظام الدولى .

  — المنازعات الدولية المعاصرة وطرق تسويتها .

  — المنظمات الدولية والتكتلات والتحالفات السياسية والاقتصادية والعسكرية .

  — الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع العربى عامة والمجتمع المصرى بوجه خاص .

- يتكون البناء التنظيمى للمركز من مجلس المستشارين ، مجلس الخبراء ، رئيس المركز ، مدير المركز .

- يتناول جهاز البحوث بالمركز بالبحث والدراسة الاهتمامات الرئيسية للمركز وهى : (ا) الدراسات السياسية والاستراتيجية (ب) الدراسات العربية والفلسطينية والاسرائيلية .
  (ج) الدراسات التاريخية المعاصرة .

- تضم مكتبة المركز الكتب والدوريات والنشرات والاحصاءات والاطالس المتخصصة التى تخدم موضوعات البحث والدراسة بالمركز ، فضلا عن قسم خاص بالرسائل الجامعية وارشيف للمعلومات .

ادارة المركز : مبنى جريدة الأهرام — شارع الجلاء — القاهرة —
ت : ٧٥٥٥٠٠ ، ٧٤٥٦٦٦ ، ٧٥٨٣٣٣

رئيس المركز . دكتور بطرس بطرس غالى

مدير المركز : السيد يسين

مطابع الأهرام التجارية

مركز الدراسات السـياسية والاستراتيجية بالاهرام

الشعب الواحد والوطن الواحد

دراسة فى اصول الوحدة الوطنية

تقديم

د . بطرس بطرس غالى

د . وليم سليمان
طارق البشرى
د . مصطفى الفقى

١٩٨٢

المحتويات

ص

تقديم : الوحدة الوطنية والشعب الواحد ٥
بقلم : د . بطرس بطرس غالى

الفصل الاول : فى أصول الصيغة المصرية للوحدة الوطنية ٩
بقلم : د . وليم سليمان قلادة

الفصل الثانى : بين الجامعة الدينية والجامعة الوطنية فى الفكر السياسى المصرى المعاصر ٤٧
بقلم : طارق البشرى

الفصل الثالث : الأقباط فى السياسة المصرية ٧٩
بقلم : د . مصطفى الفقى

تقديم

الوحدة الوطنية والشعب الواحد

د . بطرس بطرس غالى

عشت منذ طفولتى قضية الوحدة الوطنية او قضية الفتنة الطائفية وهما وجهان لعملة واحدة . فقد نشأت فى أسرة جعلت من تلك القضية نقاشا مستمرا تارة هادئا وتارة ثائرا ، ويرجع ذلك الى مقتل جدى بطرس غالى باشا فى فبراير ١٩١٠ على يد ناصف الوردانى وهو مسلم وثارت الأسرة وفجعت لفقدان عميدها وأعتبر بعض أفرادها انه قتل لأسباب دينية لا سياسية وأن المسلمين قد رفضوا أن يكون لهم رئيس وزراء قبطيا . ولا شك أن السنوات الأولى فى حياة الطفل لها تأثير بالغ فى تشكيل شخصيته وأردت فيما بعد أن أفهم عناصر هذه القضية واتعمق فيها وادرك أبعادها الحقيقة بعيدا عن العاطفة فقرأت كثيرا عن الفتنة الطائفية التى تلت مقتل بطرس غالى فى المؤتمر القبطى الذى انعقد بأسيوط والمؤتمر المصرى الذى أنعقد فى ابريل ١٩١١ فى مصر الجديدة والدراسات والمقالات التى كتبت فى هذا الوقت حول هذا الموضوع والمناقشات والمرافعات التى دارت أثناء محاكمة ناصف الوردانى ، ثم قرأت كثيرا عن ثورة ١٩١٩ التى أسهمت فى تبيان حقيقة الوحدة الوطنية التى يشعر بها كل مصرى مسلما كان أو مسيحيا واستمعت الى أحاديث الذين اشتركوا فى هذه الثورة وروايتهم حول شعور التضامن والاخاء الذى يربط بين المناضلين بغض النظر عن ديانتهم وكان لشعار الهلال والصليب صدى فى نفسى وكان لدور عمى واصف بطرس غالى فى هذه الثورة تأثير عميق على تكوينى السياسى والفكرى ومازلت أذكر جملته المشهورة التى أشار اليها تقرير مجلس الشورى فى ١٨٨١/٩/١١ عندما وجه اليه سؤال : « كيف يضع يده فى يد من قتلوا والده فكان رده أضع يدى فى يد من قتلوا أبى ولكنى لا أضعها فى يد من قتلوا وطنى » .

ولم يقتصر اهتمامى على دراسة تلك الحقبة التاريخية فقط بل قرأت شعر أحمد شوقى وحفظت عن ظهر قلب بعض الأبيات المتعلقة بالوحدة الوطنية ومنها :

قبر الوزير تحية وسلاما الحلم والمعروف فيك اقاما
اعهدتنا والقبط الا أمة للأرض واحدة تروم مراما
فعلى تعاليم المسيح لأجلهم ويوقرون لأجلنا الا سلاما
الدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وحد الأقواما
ياقوم بان الرشد فاقصوا ما جرى وحذوا الحقيقة وانبذوا الاوهاما
هذه ربوعكم وتلك ربوعنا متقابلين نعالج الأياما
هذى قبوركم وتلك قبورنا متجاورين جماجما وعظاما
فبحرمة الموتى وواجب حقهم عيشوا كما يقضى الجوار كراما

وعندما التحقت بالجامعة تركز اهتمامى على الدراسة العلمية للوحدة الوطنية من خلال القانون والتشريع ، كانت تراودنى من وقت لآخر فكرة كتابة بحث علمى فى هذا الموضوع . لذلك عندما ذهبت الى باريس لاعداد رسالة الدكتوراه فى القانون فكرت فى أن أسجل رسالة ثانية فى كلية الاداب قسم التاريخ عن العلاقات بين المسلمين والأقباط فيما بين ١٨٩٢ ـ ١٩٢٢ وأعددت مشروع الرسالة بالتفصيل وقدمته للمؤرخ الفرنسى الشهير بول رينوفين الذى أطلع على المشروع باهتمام وسألنى عن أسباب اختيار هذا الموضوع وعما اذا كان لدى اسرتى وثائق غير منشورة تتعلق بتلك الحقبة من تاريخ مصر ، فأجبت بأنها ليست سوى مجرد ذكريات طفولة ولكن أصر المؤرخ على ضرورة الاعتماد على الوثائق لا الذكريات .. وكان ذلك بداية نهاية المشروع الذى لم أتخل عن فكرته . لذلك عندما أصبحت استاذا فى قسم العلوم السياسية بجامعة القاهرة حاولت تشجيع الطلبة على اعداد رسائل حول هذا الموضوع وكتبت فعلا بعض الرسائل ولكنها لم تشبع رغبتى فى تناول هذه القضية بالتحليل المستفيض .

لكل ذلك عندما وقعت أحداث الفتنة الطائفية فى هذه الأشهر الأخيرة طلبت من مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام أن يعد كتابا عن قضية الوحدة الوطنية يشترك فيه مجموعة من العلماء المسلمين والأقباط فى تحليل ابعاد الفتنة تحليلا علميا موضوعيا وتوضيح عناصر الوحدة توضيحا علميا وبمعنى آخر تشخيص الداء لوصف الدواء .

وأريد فى هذه المناسبة أن أشير الى المقترحات التى تضمنها تقرير مجلس الشورى بشأن قضية الوحدة الوطنية وأذكر منها :

- توجيه الأمهات والاباء نحو الأساليب السليمة للتربية المنزلية ، ولا سيما فيما يتعلق بغرس بذور الحب والتسامح والاخاء ونبذ التعصب ..
- إعادة النظر فى أسلوب التربية الدينية ..
- تحصين أبنائنا وبناتنا ضد التيارات الوافدة للنيل من وحدتنا الوطنية وضد التعصب الدينى الأعمى ..
- مشاركة المسلمين من التلاميذ زملاءهم المسيحيين وجدانيا فى المناسبات الدينية المختلفة والعكس صحيح .
- دراسة شخصيات تاريخنا الوطنى الحافل التى كان سلوكها مضرب الأمثال فى الوطنية والتسامح والحفاظ على الوحدة الوطنية .

- خلق مناخ ثقافى داخل الجامعة وتنظيم مناظرات فكرية ودينية يشترك فيها الطلاب تحت اشراف هيئات التدريس .
- عقد ندوات تضم رجال الفكر وعلماء الدين من الجانبين ، وأساتذة الجامعات لتوضيح مفهوم الوحدة الوطنية ..
- استعراض الشواهد التاريخية التى تؤكد النسيج الواحد للأمة من واقع التاريخ المصرى قديمه وحديثه ومن أبرزها تعانق الهلال والصليب فى ثورة ١٩١٩ ..
- تقديم أعمال درامية لابراز صور من التاريخ المصرى تؤكد تلاحم الاسلام والمسيحية فى مواجهة المحن والفتن ..

تلك الاقتراحات لا يمكن تنفيذها الا إذا وجدت المادة العلمية التى يستطيع الكاتب أو الصحفى أو المدرس أو الطالب أو الموجه السياسى أن يرجع اليها ويستعين بها ويعتمد عليها فى أداء رسالته الوحدوية ..

إن هذا الكتاب الذى أقدمه باعتزاز للقارىء المصرى يتضمن بعض هذه المعلومات التاريخية والاجتماعية والسياسية التى ستساعده على الرؤية الواضحة لمخاطر الفتنة الطائفية وأبعاد قضية الوحدة الوطنية .

يتضمن الكتاب ثلاث دراسات رصينة الأولى كتبها الدكتور ويليام سليمان قلادة المستشار بمجلس الدولة والباحث البارز فى التاريخ المصرى الذى نشرت له من قبل دراسات رائدة فى الوحدة الوطنية . وقد تطرق فى دراسته « فى أصول الصيغة المصرية للوحدة الوطنية » الى أعماق التراث المصرى ليكشف عن الأصول الدقيقة للوحدة الوطنية فى الوجدان المصرى .

والدراسة الثانية كتبها الأستاذ طارق البشرى المؤرخ المعروف بدراساته الدقيقة عن التاريخ السياسى المصرى الذى نشر مؤخرا كتابا جامعا عن « المسلمون والاقباط فى إطار الجماعة الوطنية » .

وقد عرض الأستاذ البشرى فى دراسته العميقة لخلاصة آراء عدد من المفكرين المسلمين والأقباط حول قضايا المواطنة والطائفية والقومية وتطبيق الشريعة الاسلامية .

والدراسة الثالثة والأخيرة كتبها الدكتور مصطفى الفقى وهو من جيل دارسى السياسة الشبان الذين يسهمون الآن ببحوثهم فى إثراء المكتبة السياسية المصرية .. وقد تعرض فى دراسته لدور الأقباط فى الحركة الوطنية المصرية فى القرن العشرين .

والحقيقة التى تجمع بين الباحثين الثلاثة هى أنهم نماذج مشرفة للمثقفين المصريين فى حبهم لمصر وفى تقديرهم لعبقرية الشعب المصرى فى تحقيق وحدته الوطنية عبر العصور .

د . بطرس بطرس غالى

الفصل الاول

فى أصول الصيغة المصرية للوحدة الوطنية

المستشار د . وليم سليمان قلادة

وكيل مجلس الدولة

مقدمة

١ ـ إن التراث وإمعان التأمل فيه فضلا عن أنه يقدم متعة ذهنية رائعة ، يعتبر رحلة ـ مغامرة ، تتطلب فى أحيان كثيرة قدرا كبيرا من الشجاعة والاستعداد لتحمل المسئولية . ذلك لأنه عن طريق التأمل فى تاريخ الشعب وفى فكره ـ كما هو الشأن فى التحليل النفسى بالنسبة للفرد ، يكتشف الانسان أنه الى حد كبير يجهل حقيقة ذاته ، وأنه بسبب هذا الجهل ينظر الى نفسه من خلال مفاهيم وصل إليها الآخرون بدراسة خبرتهم وإن جاء تعبيرهم عنها فى صياغة عامة مجردة . وهكذا إذ يجد المثقفون بناء معدا من قبل فى اتقان ومهارة وجمال ، قد يسارعون بالسكن فيه ويطلبون الى شعبهم ان يقتفى الأثر . ولكن البشر العاديين قد يحسون الغربة فى هذا البناء ، فثمة فارق : المثقف المغرق فى الانفصال عن الواقع الحى يحيا بعقله يهنأ بالبناء الفكرى ويسعد ، أما الانسان الواقعى ـ فإنه يضيف الى ذلك ـ أن يستوعب البناء حقائق حياته الواقعية . بحيث لايضيق البناء النظرى بالواقع أو يمسخه فلا يعبر عنه فى أمانة وصدق . هنا تظهر أهمية إمعان التأمل فى التراث الأصيل ، إذ يكون بمثابة اختبار لصدق نظرة الانسان ـ فردا وجماعة ـ الى نفسه . ومن ثم تأتى المفاجأة ، حين يكتشف المرء ـ أقصد المصرى ـ أن المعاناة والقهر وفكر الآخرين والنسيان ـ ذلك كله قد أخفى عن ناظريه مافى التراث من « فضائل » وما حقق من إنجازات . ويعقب هذا فورا شعور حاد بالمسئولية يبهظ الانسان وينخسه كى يغير حياته الى مسار يتفق وحقيقته .

وفى حقيقة الأمر فإن النظر فى الواقع المصرى الراهن او فى تاريخه ومستقبله لايؤدى الى فهم سليم لوان المنظور كان جزئيا والنظرة مجهرية (ميكروسكوبية) . إن مصر لايمكن ان تفهم حقيقتها الا بالرؤية الشاملة التى تستوعب ـ فى آن واحد ـ أوسع مساحة زمنية ممكنة (ماكروسكوبية) وكلما اتسع المنظور كان الفهم اكثر سلامة . فالوعى يتكون تديجيا وفى بطء ، بحيث ان نتيجة مايجرى فى النفس المصرية خلال امد قصير قد لاتبدو واضحة امام المراقب الآنى ـ اما بعد كم كبير من الزمان فإن الفارق بين البداية والنتيجة يظهر بارزا مؤكدا . وينفع فى ايضاح هذا ما تقدمه جغرافية مصر من حقائق ـ فالنيل هو الضابط الاساسى ان لم يكن المطلق لشكل الأرض الطبيعى . ومن هنا فإن التجانس الطبيعى صفة جوهرية فى البيئة المصرية . ويأتى عنصر التجانس من طبيعة النهر الارسابية اساسا : « فعملية الترسيب النهرى ، ككل عمليات الترسيب المائى ، تخضع لمبدأ التدرج الوئيد طبيعيا وميكانيكيا ـ فإن كان ثمة تغيير فإنه يكون طفيفا تدريجيا جدا على المستوى المحلى بحيث لا يصبح محسوسا الا على مدى مسافات مديدة ... وفى النتيجة فإن من الصعب ان نجد بلدا يخضع فى ملامحه لقانون التدرج كوجه مصر . فإذا كان التجانس هو قانونه الأول . فان التدرج هو قانون المكمل » [١] ويأتى نضج التجربة المصرية ورسوخها من هذا التدرج الطبيعى ذى الحكمة الذاتية ، ومن ان كل مرحلة من مراحل التاريخ المصرى تستغرق فترة زمنية مستطيلة تتراكم فيها خبرة المرحلة وئيدا ـ حتى اذا جاءت مرحلة جديدة ، لم تدخلها مصر من فراغ ، بل تضم ماتكتسبه من جديد الى الذى لديها من قبل . ولا يتم هذا فى تراكم سكونى كالطبقات الجيولوجية ، بل يحدث تفاعل حيوى بين الموغل فى القدم ومايأتى بعده ـ ليكون التغيير الذى يتحقق بالتدريج تركيبا مصريا متميزا بذاته .

٢ ـ وفى الملحمة الرائعة التى ملأت صفحات المؤلف العظيم الذى **سجل فيه المستشارطارق البشرى** جهد المصريين جميعا ـ مسلمين ومسيحيين ـ لاستنقاذ جماعتهم الوطنية ، يبدأ الكاتب من النهاية ، فهو يقرر ان الاعتبار فى بداية تاريخ مصر الحديث هو بنشأة دولة محمد على فى ١٨٠٥ . وهو اذ جعل موضوع كتابه متعلقا بالصلة بين مسلمى مصر وقبطيها فى المجال السياسى ، اجرى بحث تلك الصلة من خلال تطور الجماعة الوطنية ومن خلال نمو المفهوم القومى للجامعة السياسية منذ القرن التاسع عشر « متمثلا فى حركة الاستقلال السياسى عن السلطنة العثمانية وفى حركة التميز القومى عن الخلافة العثمانية » [٢] ويضيف ان « الدولة المصرية هى المؤسسة القومية التى قام على اكتافها بناء الجامعة السياسية المصرية ... وكان بناء الجيش المصرى هو حجر الزاوية فى هذا البناء . لم يشيد الجامعة الوطنية فى مصر حزب من الأحزاب او اية جماعة اهلية ـ إنما كانت الدولة والجيش هما المبدأ والمنطلق وفى احشائهما ولدت

« المصرية » و « الحداثة » متمثلة فى الجيش وفى دور التعليم ومؤسسات الحكم المتطورة . إن التنظيم « المصرى » كان سابقا على الوعى بالمصرية ... » [٣] وكل هذا صحيح تماما ـ ولكن يبقى ان هذا المشروع السياسى لم يكن ممكنا له ان ينجح لو لم تكن المقومات الأساسية « للجماعة » السياسية متوافرة . وما لم تكن هذه الجامعة قابلة لان توصف بأنها « مصرية » . واذا كان صحيحا ان « التنظيم » المصرى كان سابقا على اكتمال « الوعى » المصرى ـ فإن من الصحيح ايضا ان التنظيم لايمكن ان يكون « مصريا » إن لم تتوافر فى البيئة الطبيعية وفى البشر الذين يضمهم هذا التنظيم القابلية لأن يجمعهم وصف واحد ، والرضا بأن يضمهم هذا الوصف وان يستوعبهم . وإذا كان الوعى المكتمل بالمصرية لم يظهر الا بعد ان استقر التنظيم وصارت ممارسته فى الواقع ، فإن ثمة مراحل أولية لهذا الوعى لامحيص عنها كى يظهر الوعى الكامل . فبذرة الوعى الضامة لعناصر حياته شرط أساسى لنضج شجرة الوعى كى تفرز ثمرتها الطبيعية . والجدل متبادل بين الوعى والتنظيم وكلما تأصل واحد منهما واستقر ، اكتسب الآخر قوة ووضوحا .

٣ ـ ونستطيع ان نقول إن البذرة الأولى للوعى وللتنظيم المصريين تتمثل أساسا فى « الأرض » وفى نظرة المصريين الى أرضهم وماتولده فيهم من تصورات وتميزو إدراك للذات . فإذا كان صحيحا تماما القول بأنه فى خصوص الجماعة الوطنية السياسية المصرية « فى البدء كان الدولة » [٤] ـ فإنه من الصحيح ايضا القول بأنه « فى بداية البدء كان الأرض » .

وحين نقول الأرض ، فإنما نعنى أيضا « الشعب » الذى يعيش عليها ليتكون من مجموع هذين العنصرين « الوطن المصرى »

أما هذا الوطن فقد ظل كائنا يجهد للظهور ، الى ان ادركه حاكم ثاقب النظر ذو عزم طموح وقدرة على « التنظيم » عبقرية ـ نجح حيث فشل سابقون عليه حاولوا نفس المحاولة ولكن لم تتهيأ لهم الظروف التاريخية المناسبة التى تهيأت له . وسيكون هذا « التنظيم » هو العنصر الثالث من الصيغة المصرية لبناء الوحدة الوطنية .

ومنذ البداية لابد ان نقرر ان الرحم الكريم الذى ضم منذ اجيال سحيقة عناصر هذا الوطن فتخلق داخله جنينا ثم احتضنها فى رؤومة حانية حتى استوى شخصية ناضجة ممتلئة من « الفضائل » التى ملأ أصحابه بذكرها الآفاق قديما وحديثا ـ نقول إن الفضل فى ذلك كله يرجع الى الدين .

وقد يكون غريبا ان جماعة تتكون بانسلاخ عن كيان دينى ـ الدولة العثمانية ـ يحتضنها الدين ويرعى رحلتها الجديدة ولكن هذا ماينطق به تاريخ المصريين . ولامبالغة اذا قلنا انه هنا تظهر عبقريتهم وان كانوا على غير وعى حقيقى بها . ويمكن القول كما سيبين ذلك فيما بعد بان مصر تمثل قيمة دينية عظيمة القدر . ومنذ دخول الاسلام « لم تكن رواية تاريخ مصر غريبة عن النشأة الدينية.كان علم الصحابة الذين نزلوا مصر هو النواة الأولى التى تكون منها تاريخ مصر . دخل الصحابة مصر معلمين ، كما دخلوها قوادا وامراء ورجال حكم ـ فرووا ماسمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم ، وماشاهدوه فى حياته ، وأشاروا الى ماورد فى القرآن الكريم والحديث عن مصر ونهرها واهلها واخبار الأنبياء الذين عاشوا فيها او كانوا على صلة بها . وأقبلوا على أهل الكتاب يخالطونهم ويسألونهم كما صنع عبد الله بن عمروبن العاص » [٥]

ولكن كيف امكن للمصريين ان تكون لهم « قومية » ـ وهذا مفهوم غير دينى ـ بحسب تعريفه الذى نحته المفكرون الغربيون من واقع خبرتهم التى تمت صياغتها فى الاطار الانسانى العلمانى ومن خلال الثورات والحروب التى واجهت الدين ومؤسساته فى أوربا ـ نقول كيف ظهرت القومية المصرية يباركها الدين ويلهمها ؟

هذه هى الأسئلة التى سنحاول الاجابة عليها فى هذه الصفحات . ماهى الخاصية المميزة للقومية المصرية التى أتاحت لها الفرصة لأن تفرز وحدة وطنية فريدة.كيف صار لها هذا التفرد فى مواجهة الكيان الدينى الذى انسلخت عنه ـالعثمانية ؟لماذا لم تأخذ الشكل المعتاد للقومية فى عصر ازدهارها ـ نعنى به العلمانية والانفصال عن الدين كما حدث فى تركيا فى اعقاب سقوط الكيان الدينى السابق ـ الدولة العثمانية ؟

ونحسب ان طريقا مأمونا لفهم الخصوصية المصرية يكون بقراءة للتراث فيها قدر من امعان النظر فيه ـ ليمكن بذلك فرز ما يفرض على هذه الخصوصية من سمات لاتتفق وحقيقتها .